للوقوف إلى جانب ثورة "الفاسح" بعد أن تعلمنا من ثورة "الفاتح"!

د. شاكر النابلسي

-١-

قبل أن يعلن الزعيم الليبي القذافي عن مبادرته المدوية بالتخلي عن اسلحة الدمار الشامل في كانون الأول كنت من معارضي الزعيم الليبي كما كان غيري كثيرون من الكتاب الليبراليين. وهذا دليل على أن خلافنا مع العقيد لم يكن شخصياً وانما كان فكرياً. وحين تغيّر العقيد تغيّرنا.

وكنت قد كتبت في الماضي عن "حكمة المجانين" التي يسوقها لنا الزعيم الليبي في الماضي بين حين وآخر. ولكني اليوم أجد نفسي مضطراً ومعي مجموعة من الكتاب الليبراليين وعلى رأسهم المفكر التونسي العفيف الأخضر إلى الوقوف إلى جانب الزعيم الليبي، ودعم حركته المتمثلة بثورة "الفاسح" الاصلاحية التي لم تقتصر حتى الآن على التخلي عن أسلحة الدمار الشامل فقط، ولكنها تعدتها إلى مجموعة من الاصلاحات السياسية المهمة داخل ليبيا، كان آخرها ما أعلنه الزعيم الليبي في مؤشر جديد على عزم القيادة الليبية اعتماد اصلاحات سياسية. كما طالب القذافي في ٢٠٠٤/٤/١٥ بإلغاء كل القوانين الاستثنائية في ليبيا والعودة الى قوانين عادية كانت مرعية قبل توليه السلطة بعد ثورة "الفاتح" من سبتمبر (أيلول) من عام ١٩٦٩. ودعا القذافي ايضا الى إلغاء محكمة الشعب الاستثنائية التي اقيمت عام ١٩٦٩ لمحاكمة أعضاء النظام السابق. كما دعا أيضا في كلمة له خلال لقائه رجال القانون والقضاء والنيابة بثها التلفزيون الليبي في ٢٠٠٤/٤/١٥ بالكف عن أي اجراء قانوني دون اذن من النيابة العامة او العقوبة خارج نطاق القضاء. وقال لا يجوز حجب أي معتقل او سجين عن زيارة ذويه ومحاميه. وشدد الزعيم الليبي على معاملة أفضل للسجناء، وعلى فتح تحقيق في مسألة سجن "أبو سليم" الذي اثيرت حوله العديد من الانتقادات من قبل منظمات حقوق الانسان.

-٢-

لقد كان القذافي في الماضي يتمسك بالاستبداد والثورة الحمراء الدموية، كرهاً بامريكا، فكان على خطأ.

وهو اليوم يتمسك بالحرية والديمقراطية وحقوق الانسان والاندماج في العولمة والمجتمع الدولي حباً في امريكا - كما يردد كارهوه - فليكن ذلك، وفي ذلك كل الخير.

فالحرية التي تأتي من أية جهة تهب منها الرياح، فهي مباركة، سواء مرّت على ديار بكر، أو مرّت على ديار عمرو.

من ناحية أخرى، لا نريد من المفكرين العرب من دعاة الاصلاح العام، اعتبار أن ما حصل في ليبيا منذ اعلانها ثورة "الفاسح" الاصلاحية وخطوتها عن تخليها عن أسلحة الدمار الشامل في نهاية العام الماضي، مجرد "مُشمشية" كما يقول أهل الشام، وهي من "المُشمشيات" الوحدوية والثورية التي اعتاد القذافي أن يخرج علينا بها، أو هي مجرد ألعاب نارية (فتاشات) موسمية من التي اعتدنا أن نراها في سماء ليبيا من فترة لأخرى وفي مناسبات مختلفة، أو مجرد طفرة وصيحة لا تلبث أن تخمد على غرار صيحات الثورجية العرب المعاصرين في الخمسينيات والستينيات.

نريد أن يكون ما تم في ليبيا منذ ذلك الوقت إلى الآن استراتيجية، وإيمان عميق بأن هذا الطريق هو الطريق الصحيح والقويم لبدء الاصلاح العربي العام.

-٣-

إن ما حصل في ليبيا هو ثورة ضد الثورة.

مات الماضي عاش المستقبل، كما صرح ذات مرة أحمد الجار الله.

ولقد أصبح القذافي قائد ثورتين، وليس ثورة واحدة.

قائد ثورة "الفاتح" السياسية، وقائد ثورة "الفاسح" الاصلاحية أيضاً.

وثورة "الفاسح" سُميّت بـ "الفاسح" لأنها هي التي من المفترض أن تفسح الحرية والديمقراطية أمام الرأي والرأي الآخر، - كما نرى من طلائعها الشجاعة - وفي ذلك سرُّ الاصلاح العام على جميع الصعد.

ولعل ثورة "الفاسح" الاصلاحية هي أكثر أهمية من ثورة "الفاتح" السياسية. فتاريخ ليبيا وتاريخ القذافي الحقيقي، يبدأ من اللحظة التي اتخذ فيها قرار وضع ليبيا كعضو محترم وبنّاء ومتعولم وعلماني وحداثي في المجتمع الدولي، تحترم حقوق الانسان في الداخل والخارج على جميع المستويات.

لقد كانت ثورة "الفاسح" الاصلاحية التي يقودها القذافي الآن، ثورة ثقافية، وثورة سياسية، وثورة عقلانية، وثورة واقعية ضد ثورة سياسية، كانت رومانسية حالمة، لا تمت إلى أرض الواقع بصلة، في زمن الرومانسيات الثورية التي تم تخطيها في المجتمع الدولي الجديد، مجتمع العولمة والحداثة والانترنت.. الخ.

-٤-

القذافي بعد أكثر من ثلاثين سنة من العمل السياسي، وبعد اعلان ثورة "الفاسح" الاصلاحية، بلغ سن الرشد الثوري الانساني، بما فعل الآن منذ ١٩٦٩ عندما تخلّى عن أسلحة الدمار الشامل، وسلم هذه الأسلحة بقضها وقضيضها وبحرها وورقها وأقلامها إلى امريكا، بغض النظر عن المبررات التي يفتيها المفتون الكارهون له، من رجال الفاشيدينية ورجال القومجية. فالضرورات الوطنية تبيح المحظورات القومجية والفاشيدينية. وليبيا تريد أن تبرأ من هذا الطاعون الذي أصاب النظم الثورجية والفاشيدينية في أنحاء مختلفة من العالم العربي، ومنها العراق.

ولكن هل هذا هو كل ما يمكن أن يؤهل الزعيم الليبي لكي يكون زعيماً اصلاحياً حقيقياً في العالم العربي، وليبدأ تاريخاً من الاصلاح على جميع الصعد؟

إن ثورة "الفاسح" الاصلاحية، تحتاج منه إلى خطوات سريعة ومهمة وواقعية في الوقت ذاته. وهو قادر عليها مقدرة تامة، فنحن لا نطلب منه المستحيل. وبالمقابل فمطلوب من كل المثقفين الليبراليين والمفكرين الطليعيين والحكماء العرب المؤمنين بالاصلاح والداعين له، الوقوف بثقة وبصدق إلى جانب ثورة "الفاسح" الاصلاحية العربية الكبيرة، التي تنطلق اليوم من ليبيا المختار وليبيا القذافي. وعلى ليبيا الآن أن تحرص على أن لا تضع يدها في أيدي الاعلاميين المرتزقة (أصحاب الكوبونات والعربونات النفطية) كما فعلت في السبعينيات في لبنان ومصر، حتى لا يفسدوا عليها ثورتها الاصلاحية الكبرى.

-٥-

مطلوب من الزعيم الليبي لكي نرفع له نحن معشر المثقفين الليبراليين من غير المرتزقة وأصحاب الكوبونات النفطية، ومن غير الذين تلوثوا بمال النفط العربي في السبعينيات والثمانينيات وحتى الآن، واقاموا المنابر الاعلامية التي تمجد وتؤله القذافي وغيره، وتضعه في مصاف زعماء الثورة الأممية وفي مصاف مفكري الإنسانية .. الخ، العُقال العربي تحية واحتراماً أن يقوم بالتالي:

١- إن ليبيا بتاريخها السياسي الطويل وبامكاناتها البشرية والنفطية وبشجاعة قيادتها المنقطعة النظير سلباً أو ايجاباً، مهيأة لأن تكون الرائدة الحقيقية في الاصلاح العام وليس السياسي فقط، في العالم العربي، لا سيما أن الطريق إلى ثورة "الفاسح" الاصلاحية قد اتخذ الطريق السلمي والأسلوب الحضاري الراقي الذي بدأ بالتخلي عن أسلحة الدمار الشامل في نهاية العام الماضي. ومن هنا وجب القيام بعقد عدة مؤتمرات سياسية وثقافية تجتمع فيها الصفوة من المثقفين العرب الليبراليين لمناقشة الخطوات التي اتخذها القذافي حتى الآن، والخطوات الواجب اتخاذها مستقبلاً. فالزعيم الليبي بحاجة إلى الاستماع إلى الحكماء أكثر من حاجته للاستماع إلى الغوغاء. وبحاجة للاستماع للعقلاء أكثر من حاجته إلى الاستماع لأصحاب الأهواء، وبحاجة ليقرأ ما يقوله المفكرون لا ليسمع صيحات الاعجاب وتصفيق الدهماء.

٢- إن القيادة الليبية مطالبة بالكشف عن ملابسات اختفاء الزعيم الشيعي موسى الصدر وصحبه، والكشف عن اختفاء منصور الكخيا وغيره من السياسيين الليبيين. وأن تعترف بشجاعة بالحقيقة المُرّة إذا كانت هناك حقيقة، كما اعترفت بشجاعة نادرة بحقائق مُرّة كثيرة في ٢٠٠٣ وكما فعلت في قضية لوكربي وقضية الطائرة الفرنسية فوق تشاد وقضايا جانبية أخرى. وأن تملك الشجاعة الكافية لاماطة اللثام عن كل القضايا العالقة، حتى تتم نظافة النظام الليبي تماماً وغسله بمغسلة الحق والبراءة التابعة للمجتمع الدولي الذي تتوق ليبيا الجديدة إلى الانخراط به.

٣- إن القيادة الليبية مطالبة باصلاح التعليم الديني الليبي. ونحن لا نطالبها بتبني الاصلاحات الغربية أو الأمريكية في التعليم، ولكنا نطالبها بتطبيق الاصلاحات التعليمية الدينية التونسية جارة ليبيا. فذلك يكفي جداً الآن كخطوة رائدة في اصلاح التعليم الديني وغير الديني الليبي.

٤- إن القيادة الليبية مطالبة الآن باصدار مجلة جديدة للأحوال الشخصية وتحرير المرأة الليبية، ليست على غرار مجلة الأحوال المدنية الفرنسية أو البريطانية أو الأمريكية، ولكن على غرار مجلة الأحوال الشخصية التي صدرت عند جارتها تونس في عام ١٩٥٦ والمستمدة من الثورة التشريعية الإسلامية التي قام بها "لوثر الإسلام" المصلح التونسي العظيم الطاهر الحداد، ومن بعده الطاهر عاشور، وابنه الفاضل عاشور. فهؤلاء ليسوا من مفكري تونس الإسلاميين الثوريين المتنورين فقط، ولكنهم من مفكري العالم العربي والإسلامي الكبار الذين أصلحوا جامعة الزيتونة في تونس التي تعتبر أقدم معهد ديني اسلامي في العالم، وفعلوا بها ما لم يستطع محمد عبده، ومن أتى من بعده أن يفعل بالأزهر الذي بقي على حاله للأسف الشديد.

٥- إن القيادة الليبية مطالبة باجراء مصالحة وطنية مع كل فصائل المعارضة في الداخل والخارج، وتبييض القلوب والسجون (وخاصة سجن أبو سليم) من المساجين السياسيين، واطلاق حرية الرأي والرأي الآخر، والسماح بقيام صحافة معارضة، وقيام أحزاب سياسية. احزاب تحكم وأحزاب تعارض، حتى تكون ليبيا النموذج العربي المُحتذى في المستقبل. فذلك هو خطاب ثورة "الفاسح" الاصلاحية، ودونه دجل وباطل وضياع وقت.

٦- إن القيادة الليبية مطالبة بانشاء مشروع وطني لترجمة أمهات الكتب في الفكر الغربي من أجل ارساء قواعد الحداثة الفكرية والثقافية في العالم العربي. فالنهضة العربية لم تقم إلا عندما أنشأ المأمون "بيت الحكمة" للترجمة. وأوروبا لم تشهد عصر التنوير والاصلاح إلا عندما ترجمت عن الإغريق والعرب. وقصور الترجمة العربية وتخلفها، كانا من أسباب تخلف العالم العربي، كما جاء في تقريري التنمية البشرية للأمم المتحدة لعامي ٢٠٠٢، ٢٠٠٣. ولعل قيام "المؤسسة العربية للتجديد الفكري" في باريس، التي يقودها المفكر والقانوني الليبي محمد عبد المطلب الهوني ويدعمها كذلك مالياً ، والتي تعقد مؤتمرها الأول في بيروت بعد أيام، هو بداية الطريق الصحيح لخطاب ثورة "الفاسح" الإصلاحية.

٧- إن القيادة الليبية مطالبة بانشاء صحافة راقية وحرة في لندن أو باريس أو طرابلس، لكي تتيح المجال أمام الليبراليين العرب من المثقفين والمفكرين ودعاة الاصلاح العام، لكي يقدموا آراءهم الحرة المطلقة عن توجهات ثورة "الفاسح" الاصلاحية العامة في ليبيا وفي العالم العربي، بعد أن ضاقت المنابر الصحافية العربية، وأصبحت هذه المنابر مُشتراة ومملوكة لنظم محافظة، أو نظم تدعي الاصلاح وتظهره ولكنها تخفي كرهها له وتبطنه، أو نظم لا تريد الاصلاح مطلقاً وتعلن ذلك جهاراً نهاراً. ولعل القيادة الليبية، تعي أهمية الاعلام في هذه المرحلة بالذات من التاريخ العربي.

٨- إن القيادة الليبية مطالبة وبسرعة كبيرة في انشاء قناة تلفزيونية اخبارية تحليلية لتقدم الوجة الاعلامي الجديد لثورة "الفاسح" الاصلاحية، وللوقوف في وجه القنوات العربية التي تنادي صباحاً ومساءً بالحل الدموي لكل المشاكل العربية السياسية والاجتماعية والثقافية وتكفير الآخر بدلاً من التفكير به. وغاية هذه القناة الدعوة إلى الاصلاح العربي العقلاني والشجاع والمفتوح على الآخر وفكر الآخر، كما بدأته ثورة "الفاسح" الاصلاحية.

٩- إن القيادة الليبية مطالبة باعادة تمويل ودعم "مركز الانماء القومي" في بيروت الذي كانت تموله ثورة "الفاتح" وهو من أكثر المراكز اشعاعاً وتنويراً في العالم العربي، والذي كان يُصدر في الثمانينيات وبداية التسعينيات المجلة الثمينة (العرب والفكر العالمي) والمجلة الثمينة الأخرى (الفكر العربي المعاصر). والآن وقد قامت ثورة "الفاسح" فهي الجديرة بأن تدعم مثل هذه المراكز الثقافية المهمة.

١٠- وأخيراً، فإن القيادة الليبية مطالبة بالتوقف عن دفع الرشوات والعطايا والهبات للمرتزقة من الاعلاميين العرب في لندن والقاهرة وبيروت وغيرها من العواصم الذين طبلوا وزمروا كذباً وزوراً وبهتاناً لثورة "الفاتح"، ويهاجمون اليوم ثورة "الفاسح" الإصلاحية. فهؤلاء كانوا وما زالوا هم الذي ساروا ولطموا وبكوا، في جنازة ليبيا في الماضي، وهم الذين يلطمون الآن ويبكون لعودة ليبيا إلى الحياة من جديد، بعد أن كاد الموت الدولي أن يأخذها إلى

بالمحبة والتسامح والتفاهم نبدأ حياتنا العراقية الجديدة

في صدر كل عراقي لوعة أثر جريمة أقترفها النظام البائد وأزلامه وتشظت روحه بسببها أو تضررت عائلته نتيجتها وتبعثر عمره بين المعتقلات والمهاجر والغربة (وتطشرت) حياته وتغير مستقبله نتيجة لكل هذا، التقارير المرفوعة والأخباريات المكتوبة والهمس الذي كان يدور في الظلام ، الكثير من القيم الرديئة التي أدخلتها السلطة لتشتيت قيم الخير والمحبة والأصالة في العراق

زهي كاظم عبود

العديد من العراقيين غادروا العراق مرغمين ، خوفاً من قطع اللسان أو بتر الأذن أو حز الرقبة بالسيف او الموت بالثاليوم او بالاعدام خشية من تقرير أو وشايةأو همسة أو حديث عابر في جلسة يشكو فيها الأخوان همومهم للبعض ، ويشكون ماصار اليه الحال في العراق ، ويشكون من قسوة السلطة وظلمها وقساوتها وعدم تقبلها للنقد ، والوقت المنهوب من أعمارنا والضائع بين تدريبات وقواطع الجيش الشعبي أو جيش ماسمي بجيش القدس الأجباري أو حراسة الوطن العاري المنزوع منه كل شيء.

بل دفع العديد حياتهم جراء عدم الأخبار عن حديث تحدث به غيرهم أمامهم ، فأضحى عدم الاخبار عن كل ماتسمع أو تشاهد جريمة تؤدي بصاحبها الى المشنقة.

في صدر كل عراقي قصة تصلح لكتابة رواية مأساوية كجزء من محنة العراق ، وفي داخل كومة عظام كل شهيد قصة أيضاً ، تبدلت قيم كثيرة جميلة وأصيلة لكنها صارت متدنية وهجينة ، وتردت قيم أخرى وأرتفعت قيم منحطة.

أصبح من يستمع الى نقد السلطة البائدة ويحجم عن الأخبار متهماً بالخيانة العظمى ويستحق الرجم والموت ، أصبح من ينتقد أي شيء يعاقب وفق نصوص قانون العقوبات العراقي الجديد الذي يعاقب من يشتم الذات الألهية بالغرامة المالية البسيطة ، ومن يشتم الرئيس البائد بالاعدام بقطع اللسان ومصادرة امواله المنقولة وغير المنقولة.

العديد منا تغيرت مسارات حياتهم ورحلوا الى المنافي برغم انوفهم وحفاظاً على أولادهم وأرواحهم، والقسم الآخر آثروا أن يتركوا أعمالهم ويقبعوا في دوائر النسيان مبتعدين عن دائرة الضوء لئلا يتذكرهم أحد رجال السلطة.

البعض أمتهن مهناً لاتليق به ولاعلاقة لها بأختصاصه الأكاديمي أو العلمي بسبب وشاية أو تقرير أو اخبارية بسبب حاجته الى لقمة العيش لعياله، العديد من الأكاديميين من سحبت منهم شهاداتهم التي أخذوها بعرق عمرهم وتعب السنين ، ومنح بعض شهادات ليس لهم أن يعرفوا طريقها ولاأستحقاقها ولاقيمتها.

السلطة البائدة تعتمد الأخباريات وتضع لها حساباً مهماً ، وقد أوعزت للمحاكم أن يتم أعتماد تقرير الرفيق البعثي فقط دون أن يحضر لتأكيده أمام المحكمة ويعززه باليمين.

التقارير التي يرفعها ضعاف النفوس يتم أعتمادها في سلطة تشك حتى بكاتب التقرير فلاتسأ ل عن صحة المعلومات أو دقتها ، بل يتم أعتمادها عشوائياً.

ولاغرابة مع سلطة تعتمد النية التي لايعلمها الا الله كفعل جرمي تحاسب عليه بالسجن أو بالموت.

أتذكر أن أحد القضاة وأسمه (جبار صاحب أبو ناصرية) وكان يعمل نائباً لرئيس أستئناف منطقة النجف ، وهو من قضاة الصنف الأول ومن القضاة المتميزين علمياً وعملياً ومن ذوي الخبرة ويشهد له بالألتزام والنزاهة ، وقد صدر قرار من مجلس قيادة الثورة في عام ١٩٩٤ يقضي بأحالته على الوظيفة المدنية وسحب صفة القاضي منه وهي عقوبة غريبة على القضاء العراقي ، بناء على تقارير من دائرة أمن النجف مؤسسة على أخباريات من وكلاء الأمن.

القاضي المذكور كان قد توفاه الله في عام ١٩٩٢ ، قبل أن يصدر قرار مايسمى بمجلس قيادة الثورة بسنتين فأي نكبة ومأساة كان يعيشها العراق والقضاء العراقي.

العديد من التقارير والوشايات الكاذبة ذبحت مستقبلنا وأستقرارنا ، والمصيبة أن أغلبها كاذب مغرض وبقصد الأساءة والايذاء لابقصد أيصال الحقيقة أو الحرص على السلطة ولكن السلطة كانت تعتمدها في الذبح ليس لأنها سلطة غبية وتمرر عليها الأخباريات والتقارير الكاذبة ، أنما لأنها تنهج نهجاً من أسسه تقبل التقارير مهما كانت غايتها وأعتمادها في ذبح العراقيين أمعاناً في تخويفهم وأذلالهم.

وفي زمن جديد نتخلص فيه من وشايات المخبرين ، ومن تقارير الأمن والحزب البائد ، علينا أن نتخلص من عقدة الغبن الذي أصابنا ونفتح صدورنا وقلوبنا لجميع أخوتنا الذين أوغلوا في جرائمهم بكتابة التقارير علينا، أن نمنحهم فرصة جديدة في العراق الجديد، أن نطوي بيننا وبينهم صفحتنا.

من يقدر على ذلك فقد وضع لبنة من لبنات البناء الحضاري الجديد في العراق ، وساهم بشكل جدي بالتضحية في سبيل أرساء معالم البناء الديمقراطي الذي ننشد.

أخاطب من خلالكم من تقدم بالأساءة للأخر ، أن يتقدم بالأعتذار لنسامحهم من كل قوبنا وأتمنى أن نفتح صفحة جديدة في عراقنا الخالي من قيم الزمن البائد النتنة والرديئة.

لقد عانينا كثيراً وتألمنا كثيراً وتغربنا في أقصى بلاد الله لكننا كنا صابرينً وعلى يقين أن كلمة الحق لابد أن تنتصر وأن نهاية الظلم لابد أن تحل في العراق فقد بلغ السيل الزبى ، ولهذا فقد عملنا وبكل قوة ضد السلطة القمعية بأقلامنا وكتاباتنا ودراساتنا وافعالنا ، وأصدرنا الكتب وألقينا المحاضرات وساهمنا في المؤتمرات التي تدين الطاغية و السلطة والحزب البائد ، ولم ننثن ولم نضعف بالرغم من التهديدات والرسائل والوسائل المتخلفة التي مارستها سلطة البغي والطغيان ، وبالرغم من الأغراءات الساذجة ، الا أننا وفينا وساهمنا بشكل فاعل ما نستطيع أن نقدمه في سبيل خلاص شعبنا من قبضة السلطة.أجد لكم كل الأعذار وأتمنى أن تنزعوا كل مافي قلوبكم من حقد حتى نلتقي عراقيين أنقياء نطمح الى زمن جديد يعيش فيه أطفالنا دون تقارير ودون خوف أو رعب في وطن أسمه العراق الجديد بحق بعد أن نزعنا منه أغلال الذل والتسلط والطغيان وحكم الفاجر البائد.

وأذا اختلفنا في الأساليب والطرق والوسائل فلاندع هذا الأختلاف يصير خلافاً ويشتت وحدتنا ويفرق كلمتنا ، وأذا أختلفنا في الأفكار والعقائد فلندع الوطن يوحدنا ومحنة الأنسان العراقي سبباً يجعلنا نعمل معاً دون أن نفترق أو ينهش بعضنا البعض أو نجرد بعضنا البعض من أنسانيته وكرامته بأية شكل كان ، فلندع الهاجس الوطني في أن نعيد للعراق أصالته وللشعب فرحته وحياته الأعتيادية وللمستقبل أن يتمتع به أطفالنا فليكن أختلافنا في العقائد والأفكار والرؤى سبباً يدعونا للتسابق من أجل خير الوطن وسعادة الشعب وحياته الحرة الكريمة.لنبدأ جميعاً صفحة جديدة من صفحات الحياة العراقية بعد أن تخلصنا معاً ممن يلطخ قيمنا الجميلة ويسيء الى أسمنا وتاريخنا ويرغمنا على أن نتبع القيم والأعراف السيئة ، تخلصنا من رمز شرير كان يرعب حياتنا ويدنس أحلامنا ويعيث فساداً بمستقبلنا ويخاف منه أطفالنا منذ دخولهم رياض الأطفال حتى شيخوختهم ، وبات يسمم هواء حياتنا وينغص أيامنا وحجر عثرة امام مستقبلنا وقد ركلناه بأرجلنا الى مزابل التاريخ.

النقد والنشر وأوجه التقويم الخرى في الثقافة العراقية

عادل العامل

يستمد الإنسان قيمته الحقيقية من مستوى كفاءته وعطائه المتواصل وعمق تجربته الإنسانية، وليس من سعة علاقاته الشخصية وقدرته على جلب الأضواء ومقايضة المنافع الخاصة، التي غالباً ما تحصل لغير صالح الحق والحقيقة في مختلف مجالات النشاط الإنساني.

وعندما يأخذ المرء ما يستحقه فعلاً من التقويم والتكريم والمتابعة الإعلامية، وعلى النحو الذي يشمل غيره وبغض النظر عن الرغبة الشخصية والتأثير النفعي في ذلك، فإن الأمر يبدو طبيعياً ومفيداً ويستحق التقدير والاحترام ويشكل تقليداً أخلاقياً يفخر به من يمارسونه والوسط الذي يحصل فيه والمجتمع بشكل عام. أما ما يحصل خلاف ذلك فلا يستحق إلا النفور والازدراء ولا يحقق للمحتفى به وللمحتفي ما يصبوان إليه من نفع واحترام مهما كثر الضجيج واتسعت المساحة الإعلامية وتلونت الأضواء.

ولولا الحرص على الابتعاد عن المحاكمة الشخصية والإساءة لمشاعر الغير، لأن الأمر ليس شخصياً أصلاً، لأوردت من هذه الأمثلة والنماذج والأسماء، في الوسط الثقافي بوجه خاص، ما يضيق عن استيعابه كتاب كامل وليس مقالة سريعة كهذه القصد منها التنبيه إلى لا أخلاقية هذه الظاهرة وضررها الفادح على حقوق الكثير من الأدباء والفنانين المبدعين "العاجزين" عن استجلاب النقاد والإعلاميين إلى مائدتهم الفقيرة، وعلى مقاييس الإبداع ومستواه العام، بالتالي.

فما معنى، على سبيل المثال، أن يتركز استكشاف الإعجاز والعبقرية والتجديد في الشعر الحديث، مثلاً، منذ الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، على نتاجات عددٍ محدود جداً من الشعراء، ساهمت الدوافع السياسية كثيراً في انطلاق حملة استكشاف بعضهم وتضخيمهم، حتى لم يعد هناك ما يمكن استكشافه لديهم، أو ما يستحق الاهتمام لدى غيرهم من الشعراء، طالما أن النقاد المحترمين وجدوا أن ما قاله هؤلاء هو الرائع الذي لا رائع بعده، وكانت النتيجة أن هؤلاء راحوا يكررون أنفسهم في كتاباتهم اللاحقة، وأن القادمين الجدد إلى محراب الشعر وجدوا أن محاكاة الأوائل ستنقذهم من العزلة والنسيان. ولهذا فليس غريباً أن تقرأ لشاعر كبير الآن كلاماً عادياً لا يربطه بالشعر الحر غير التفعيلة المعروفة، ومن دون تفعيلة حتى، أحياناً، ويجد الترحيب الكبير من النقاد، ومحرري الصفحات الثقافية بوجه خاص، لأن الذي كتبه هو فلان بن فلان، ولابد أنه رائع ويستحق الاحترام.. والنشر فوراً!

كما لم يعد غريباً أن تخصص صفحات ثقافية كاملة للقاءات مسهبة مع نماذج هابطة من الشعر لشعراء كان من الممكن أن يعطوا أفضل مما أعطوه لو أنهم وجدوا نقاداً موضوعيين ومحرري لقاءات يحترمون أنفسهم والقارئ والمطبوع الذي يعملون له، ولم تكن المكافأة المالية دافعهم لإجراء هذه اللقاءات، وإنما المكانة الأدبية الحقيقية للشاعر أو القاص ومستوى عطائه الرفيع.

وما يصح قوله على هؤلاء يصح على كتبة عروض الكتب الصادرة لنمط معين من الأدباء الذين تربطهم بهؤلاء الكتبة رابطة ما، غير اتحاد الأدباء والكتاب بالطبع، حيث لا يوجد في هذه الكتب إلا ما هو رائع ومعاصر وحداثي ونابع من تلافيف التجربة الانبهارية المتكرشة بالدفق النازف من بطن الفلكوت المحلولك بالحيات وأسماك المعدان الديموزية!!

وتحضرني هنا ذكرى ذلك القاص الروائي المتألق المجدد الجميل الذي كانت تؤخذ الشهادات العليا في معجزات أدبه الروائي المنقطع النظير أيام كان ذلك يعني شيئاً في ظل النظام السابق.. وها هو الآن يكتب خواطر إنشائية وينشرها على أنها شعر في صحف بلد عربي لا يتصفحها فيه إلا المطلوب منهم أن يفعلوا ذلك!

إن النشر، وغيره من أوجه التقويم والتكريم والإنصاف، مسؤولية خطيرة يرتكب من يستهين بها جريمة بحق الثقافة الوطنية ونخبة الأدباء والفنانين والمفكرين من أبناء هذا الوطن، لأنه قد يغمط حقاً مشروعاً واجب الإنصاف، أو يضلل عقولاً جديدة على مقاييس التقويم السليم، أو ينافق مدعياً أو دجالاً لا يستحق الاهتمام والتكريم. وكل هذا يؤدي إلى حرمان الثقافة الوطنية من عناصرها النظيفة الفذة القادرة أو الواعدة بالارتفاع بهاإلى آفاق أرحب.

كما إن التكريم المبالغ به، كالذي يحصل اليوم أحياناً لأناس أخذوا أكثر مما أعطوا، لأسباب لا تبدو لي ثقافية صرفاً، لا يؤدي الغرض المنشود الذي أتحدث عنه إن لم يكن يجهضه ويحول مثل هذه الملتقيات التكريمية المستعجلة إلى مجرد ديكور للجهات القائمة به تتجمل به أو تضعه في رصيدها للأيام القادمة!

فأنت إن انهيت محنة الأدباء والفنانين في اتحاداتهم الضائعة، وفتحت لهم منابر كافية للنشر والتعبير والعمل، وحسنت بالتالي موقعهم الاجتماعي، فذلك خير ألف مرة، في مردودها الإنساني والإبداعي، من كل مهرجانات التكريم الإعلامية المتسارعة وكأنها محددة بفترة معينة من الزمن، والمقتصرة على كهنة الهيكل أنفسهم!

إن على الذين يتصدون للنقد اليوم أن يضعوا في المقام الأول أخلاقية هذه المهمة ثم المقومات العلمية المنفتحة المتحررة من القيود النظرية والأكاديمية للنقد الاستكشافي المغامر، وأن يتوقفوا على الفور عن اجترار المصطلحات التقليدية التي فقدت الروح، والأسماء المكررة منذ الخمسينيات والأسماء الخاوية التي برزت بفعل فاعل غير المستوى الأدبي أو الفني الرفيع أو الواعد حقاً. وعلى محرري الصفحات الثقافية ومجلات الأدب والفنون أن ينظروا إلى النص قبل رؤيتهم لاسم صاحبه، وإذا لم تكن لديهم الخبرة الكافية في تقويم نوع ما فإنهم يستطيعون الاستعانة بخبير، بقدر ما تسمح به ظروف المطبوع. فذلك أحفظ لسمعتهم الأدبية وأنفع للقارئ وأكثر دفعاً للكاتب إلى الحرص على المستوى الرفيع والإبداع والتألق في أعماله التي يقدمها للنشر، بوجه خاص.